مع «قرارة الموجة»

بقلم عبد اللطيف شرارة

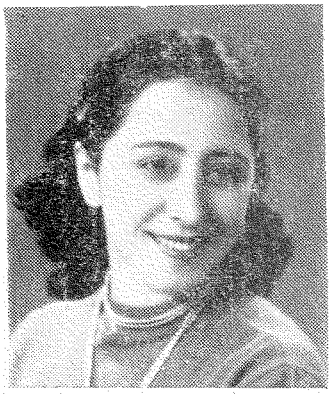

هناك .. وراء كل ما تقوله نازك ، في شعرها ، لا في النثر « تجربة اساسية » اصيلة ، يشهق فوقها اكثر ما تبني من قصور شعرية ، وخيالات سحرية ، وصور ومعان وآفاق تتصل بحيوات الناس ، وفضاء الاجتماع البشري .

تلك التجربة هي ، على وجه الاجمال ، شعورها العميق البعيد بقيمة الحزن ، وما يرادفه او يتفرع عنه ، او يقاربه من كآبة ، وسكون ، وتأمل ، واسترسال مع النفس في الظلام ، وتقليب للحياة واشكالها ، في جو افتقادها ، وتعقب اسرارها ، والتملي الهادىء النير من الجمود المطلق ، او العدم المطلق الذي نعبر عنه بكلمة « موت » . وكل من يشغله الحزن في هذه الدنيا ، لا بد وان يكون قد امتد تفكيره الى ما وراء الحياة ، الى ما بعدها ، الى ما يغلفها من اسرار لا سبيل الى كشفها ، ولا حيلة في القلق من اجلها ، ثم لا راد لفضول النفس حولها ، وحومان الفكر في اطارها .

ولن تجد كبير عناء للتأكد من اصالة هذاك الشعور ، في تجربة نازك وانبجاس شاعريتها :

العبقرية، يا فتاي ، كئيبة والضاحكون رواسب وزوائد

ولاحظ اغنيتها للحزن :

افسحوا الدرب له ، للقادم الصافي الشعور
للغلام الرهف السابح في بحر اريج
ذي الجبين الابيض السارق اسرار الثلوج
انه جاء الينا عابرا ، خصب المرور
انه أهدأ من ماء الغدير
فاحذروا ان تجرحوه بالضجيج ...

حيث تصور الحزن بأبهى ما يخطر على بالها من تصاوير وارق ما يوقظ في القلوب من رقة وحنين وعطف .

وهذه النزعة الى تقديس الكآبة ، الى التعاطف مع الحزانى ، الى مشارفة الاسى ، والبحث عن المأساة في كل شيء ، ليست « حادثا فكريا » اي منقولا من الذهن الى النفس ، كما هي الحال لدى متحذلقة الرومانسيين الاولين .

لا ! ليس في امر نازك شيء من ذلك ! واذا كان شللي يقول : « ان اعذب أغانينا تلك التي نصور بها احزن حالاتنا » ، فهذا لا يعني ان نازك تلميذة شللي في تجربتها الشعرية .

انها تلتقي ، مجرد التقاء عفوي ، مع شللي في طريقها التأملي الصاعد الى اعالي الوجود ، شأنها في ذلك ، شأن غيرها من العلماء والباحثين والفنانين الذين يلتقون دوما عند الحقائق ، على بعد المسافة بينهم في العصر والبيئة واللغة .

المهم انها تعبر عن تجربة حية ، صحيحة ، تظهر معاناتها اياها في كل ما ترسم وتصف من نفسها وحياتها ومجتمعها ، فهي لا تزيد عن ان « تؤرخ » بلغة شعرية ، هذه الحقبة من الوجود العربي .

*

لننظر الان الى مظاهر هذه التجربة ، في حياة الشاعرة ، قبل ان ندرس العوامل الاجتماعية التي تحتمها ، والاسباب التاريخية الكامنة وراءها :

اول ما نلاحظ ان الكآبة في تجربة نازك حادث كوني ، لا يد للانسان فيه ، ولا طاقة على دفعه . وهذا الحادث يتكرر يوميا في الف شكل والف لون ، وتتعدد اسماؤه من شعور بالغربة ، الى تفاهة بالبشر ، الى ملل تستحكم حلقاته وتأخذ بتلابيب النفس حتى تردها اشلاء ممزقة ، الى « رتابة » يضيق معها الصدر والوجود ، الى اهمال في الناس للقيم ، الى مرارة ، الى ظلمة ، الى اشباح ووساوس لا حصر لها ولا نهاية .

هذه الكآبات المتنوعة ، المتعددة التي تشعر بها نازك ، ولا بد لها من واحدة منها في كل قصيدة ، وان لم يكن في كل بيت ، ترجعنا الى بوذا الذي لم يجد في الكون غير ألم متصل ، وعذاب مستمر ، والذي حمله وجدانه هذا على انتهاج فلسفة كانت الاولى من نوعها في تاريخ الفكر البشري .

بيد انك لا تشعر مع نازك انها غائصة وراء فلسفة ، او باحثة عن طريق خلاص ، فهي لا تستعدي الكون من اجل آلامه ولا تتبرم بالعالم تبرم الحائر ، التائه ، المضطرب ، وانما تتقبل الالم ، وتحسب فيه كثيرا من الخير والجمال .

ليست هذه الشاعرة اذن ، منغمسة في « ظلمة روحية » تحجبها عن جمالات الوجود وافراح الحياة ، وتزين لها اليأس ، وتثير في سريرتها الحنق ، على نحو ما يظهر لنا في اشعار المتشائمين ، وفلسفات اليائسين ، ومجون الساخرين من اتباع الخيام والمعري وشوبنهاور ، ومتصوفة الهنود .

هذا ما يظهر جليا في قصيدتين هما « دعوتان » ، الاولى الى الاحلام ، والثانية الى الحياة . والمسافة بين الاحلام والحياة بعيدة ، والدعوة اليهما صادرة عن روح واحدة ، وفكر واحد ، وهما رغم تناقضهما الظاهر ، يلتقيان في الحقيقة ، والتقاؤهما عند نازك يوضح حقيقة موقفها من

الكون ، وشعورها تجاهه :

تعال لنحلم ، ان المساء الجميل دنا
ولين الدجى ، وخدود النجوم تنادي بنا
تعال نصيد الرؤى ، ونعد خيوط السنا
ونشهد منحدرات الرمال على حبنا

*

سنحلم انا استحلنا صبيين فوق التلال
بريئين نركض فوق الصخور ونرعى الجمال

*

سنحلم انا نسير الى الامس لا للغد
وانا وصلنا الى بابل ذات فجر ند ..

فهي لا تريد من « الاحلام » تلك المتعة الصبيانية التي يجدها الحشاشون ومدمنو الخمرة ودعاة اللذة التي تغرق الوقت وتنشر الضباب على الفكر ، وانما يتصباها في الاحلام جمالات خاصة في الدجى والنجوم والمنحدرات ، ومعان خاصة كالبراءة ، وانقلابات نفسية خاصة ، كالسير بالزمن الى الامس لا للغد .

والحياة كالاحلام لا تتصباها ، ولا تدعو اليها ، لانها حياة ، بل لمعان خاصة ايضا تتمثل في الغضب والتمرد والعنف والطموح والجد المرير العاصف :

اني احبك نابضا متحركا ، كالطفل ، كالريح العنيفة ، كالقدر
عطشان للمجد العظيم فلا شذى يروي رؤاك الظامئات ولا زهر

*

الصبر تلك فضيلة الاموات في برد المقابر تحت حكم الدود ..
انا لا احبك واعظا ، بل شاعرا قلق النشيد
تشدو ولو عطشان دامي الحلق ، محترق الوريد
اني احبك صرخة الاعصار في الافق المديد
وفما تصباه اللهيب ، فبات يحتقر الجليد ...

وهنا علينا ان ننتبه ، يجب ان نذكر هنا ان التي تخاطب الناس في قصيدتها هذه من وراء فتاها ، انما هي فتاة ، فاذا « أحبت » معنى او صفة كانت تعني ما تقول ، ولا تقوم بعملية ارشاد ، او تدريب ، او نصح ، كما يفعل الرجال . ولا هي تنظر للامور من زاوية خاصة ، اي انها « لا تعمل سياسة » بتعبير اخر ..

اريد ان اصل من وراء هذه التقريرات الى قضية اشكل امرها على ناقدي نازك وقارئيها وعارفيها ، هي حسبانهم انها تعيش في « عالم مغلق » ارضه وسماؤه وآفاقه وجدرانه مصنوعة من عواطفها وأحاسيسها ، من ذاتها .. ولا شيء غير ذاتها ، وان كآبتها ناجمة عن انحصارها في تلك الذات المستوحشة ، الغريبة ، الحزينة ..

هذا غير صحيح .. والمظهر هو الذي يخدع العيون ، ويصرفها عن الجوهر ، فنازك مأخوذة بعالم لا وجود له في واقع الحياة ، مفتونة بدنيا تتراءى لها من خلال احساسها السلبي تجاه اوضاعنا الاجتماعية العامة في بلاد العرب .

وذلك هو سر كآبتها ..

*

اما كيف نصل الى اكتشاف هذا السر ، فلا أقل من ان نعيد النظر في الحياة العربية الراهنة التي يحياها اهل العراق ، كما يحياها اهل الاردن واليمن ومصر وسورية وتونس .. ودعك من فلسطين !! ولا تذكر الجزائر !

ما الذي يفرح في هذه الديار ؟! ولم يصفق فيها الشاعر؟ ولمن يصفق ؟ واين يطل الطرب على النفوس الحساسة والقلوب الرقيقة ؟ وكيف لا يشعر واحدنا بالانقباض والضيق حيال الاخبار التي يقرؤها في الصحف، والمشاهد التي تقع عليها عينه في الطريق ؟ ومن اين تشع البهجة وقد حيل بين الامل والآملين ، والعمل والعاملين ، ولم يبق امام المخلصين غير التجلد ، واليقظة ، والدعوة الى التحمل والثبات والاستمرار في التضحية والكفاح ، في كل حقل من حقول الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة ؟

تلك هي الاسئلة التي ترد على الاذهان كلما دعي العربي، في اي بلد ، الى الفرح ، ولا احسب انها ترد الا بصيغة الاستفهام الاستنكاري !!

هكذا تخاطب نازك اغاني الامل ، اي بهذا النوع من الاستفهام :

اين ، اين ترى تذهبين ؟ في سكون السنين
والطريق الذي تسلكين صامت لا يبين !!
ولمن تخلقين العطور ؟ والليالي تدور
ولمن دفؤك المسحور ؟ للدجى ؟ للقبور ؟
ولمن انت والمنشدون رحلوا في سكون ؟
والاسى ، يا اغاني ديون دفعتها عيون

ثم يستمر بها هذا الشعور ، ولا تجد في طريقها على الحياة ما يضعفه ، او يميل به الى التهدئة ، او يصرفه عن « الاسى » : فهذا شهيد من فلسطين ، وهذا عام جديد يقترب من اناس حيل بينهم وبين الحياة الصحيحة ، وهذه امرأة اخرى نائمة في الشارع ، في الكرادة من بغداد ، « في ركن مقرور » ، وهذه امرأة اخرى تموت في الطريق دون ان يرافق جنازتها احد ، وهذا شاب يقتل اخته « غسلا للعار » ويذهب الى الخمارة يجالس فتاة على المائدة دون ان يشعر بالعار .. وهذا .. وهذا .. ماذا تريد بعد من مزعجات ومحزنات ومؤلمات ومثيرات ؟!

ليس في العراق ما يفرح .. فهل تطلب الى نازك ان تفرح رغما عن المحزنات ؟!

*

غير ان هذا الشعر الذي ينبع عفوا من صميم حياة مرة، كئيبة ، تخنقها التقاليد البالية ، والاوضاع الملتوية المؤلمة، يبدو غير واع من مهمته الاجتماعية التي يقوم بها ، فاذا قراته لتستوعب ما فيه خالجك ضرب من الضجر مرده الى تكرار الاجواء ، وتعاقب الصور المتشابهة ، والكلمات المترادفة :

ايام طفولتها مرت في الاحزان
تشريد ، جوع ، أعوام من حرمان

احدى عشرة كانت حزنا لا ينطفىء
والطفلة جوع أزلي ، تعب ، ظمأ
ولمن تشكو ؟ لا احد ينصت او يعنى
البشرية لفظ لا يسكنه معنى
والناس قناع مصطنع اللون كذوب
خلف وداعته اختبأ الحقد المشبوب
والمجتمع البشري صريع رؤى وكؤوس
والرحمة تبقى لفظا يقرأ في القاموس

هذه الادوار الخمسة من قصيدة « النائمة في الشارع » تردد شيئا واحدا ، ولا يختلف واحد منها عن الاخر في مضمونه ، ومع ان الموضوع من اطرف ما يمكن ان يهز شاعرية شاعر ــ فكيف بشاعرة ! ــ تراه ينحدر في تأثيره ويرتطم بقوة ايحائه ، لا لشيء سوى كثرة التعابير التي تدل على معنى واحد ، او تشير الى جانب واحد .

ليس لهذه « الآفة » في شعر نازك من سبب ــ كما احسب ــ سوى انها تستغرق في « الاحسوسة » الواحدة استغراقا شاملا يملك عليها اقطار تفكيرها ، فلا يتاح لها في مناخ ذلك الاستغراق العاطفي ان تنتقل من أفق الى أفق ، او من معنى الى معنى ، او من صورة الى صورة اذ يتسمر ذهنها عند اللفتة الغريبة ، او الخاطرة المثيرة او الفكرة الطافرة الطاغية !

ولذلك ، نراها عندما تتحرر من الاستغراق ، او عندما يكون الموضوع بطبيعته مما ينقل الفكر الى مناخات خارجة عنه ــ نراها تبدع وتحلق ، وتوقظ من الاحاسيس المتنوعة ما لا يخطر لها هي ببال . وافضل مثال على هذا اللون من الابداع قصيدة « الزائر الذي لم يجيء » حيث تصور حالات النفس بين الحضور والغياب بما لم يسبق لاحد من شعراء الشرق او الغرب ان وفق الى مثله ، فيما اعلم !

ومداد هذا الابداع في وصف حالات النفس عند نازك ــ وهو ابداع ينتظم اكثر موضوعاتها ، ومعظم التفاتاتها ــ ان قلبها عالق ابدا بالمستحيل ، متطلع الى ما لا يتحقق ، وكل ما هو واقع ، او ما يمكن ان يقع ، يثير في نفسها النفور ، والمقت ، ويهيمن عليه في حسبانها السكون ، والجمود ، والرتابة :

في ظلام الذكرى ، وادفع كفي
في جنون عساي ألمس شيا
فاحس الفراغ في جسد الاشباح
اني أصافح المستحيلا

الذكرى ، والشوق ، والحنين ، والاشباح ، والاساطير ، والصمت ، والتمرد ، وما يتصل بهذه الحالات ، وهي كلها حالات تمر بها الروح المتفردة ، هي المحور الذي تدور عليه شاعرية نازك ، فاذا تأملت كل واحدة منها على حدة ، وفكرت فيها بعمق ، وجدت بينها جميعا « قاسما مشتركا » هو خلوها من الواقع ، وارتكازها اليه في آن واحد ، او دورانها بين الحضور والغياب ، او ترددها في الزمن بين الممكن والمستحيل .

✶

ليس من شأن هذه الموضوعات ــ وهي وحدها الشعرية في نظر فاليري ــ ان تجد تعبيراتها في الموسيقى القديمة ، في الالفاظ الجزلة ، في عمود الشعر العربي بقول مختصر ، لان الفكر الذي يلتقطها حديث ، متصل بتيارات الثقافة الحديثة ، متأثر بالعصر ، ناقل عنه ، فلا غنى لقارىء هذا الشعر عن معرفة الاصول الصادر عنها ، عن الاحتكاك بالحقائق التي يحوم حولها ، ويدور في فلكها .

لذلك ، نرى نازك تلجأ الى اصطناع اوزان جديدة ، وبحور لا عهد للآذان العربية بمثلها ، كما تلجأ الى استعمال كلمات خاصة مثل « يوثوبيا » و « سجل » واوصاف خاصة مثل « فجري » نسبة الى الفجر .

قال لي احدهم ، وهو يقلب « قرارة الموجة » : « هذا شعر ، او هذا كلام ، لا احسن قراءته فضلا عن ان افهمه » . وقد اعجبني هذا القول بوصفه ابلغ بيان لموقف القدامى من الشعر الحديث .

يجب ان نعترف بهذه الحقيقة ، وهي ان العقلية العربية السائدة ، لم تستطع ان تخلص بعد من موقفها القديم ازاء الشعر والشاعرية والشعراء ، سواء فيما يعجبها او يثير استهجانها ، فيما يسخطها او يرضيها .

لا بد لنا من زمن طويل .. طويل .. ومن جهد كبير كبير ، كي نحمل الناس في بلادنا العربية على تذوق الشعر الحديث على الافادة منه ، والاستمتاع بجمالاته ، وعلى الشعراء المحدثين ، والشاعرات المتجددات ان يصبروا ، ويصابروا ، ويتحملوا ، ويتجلدوا ، ويجاهدوا .. في انتظار اليوم الذي يصبح فيه شعرهم مثار اهتمام العامة ، وموضع تقديرهم !

وسيلتقي الشتيتان ، ويلتئم الشمل في منتصف الطريق ، لا محالة ..

عبد اللطيف شراره

في المكتبات
الدمع المر
مجموعة قصص
من صميم الحياة العربية
بقلم الدكتور
سهيل ادريس
منشورات دار الآداب
بيروت ص.ب. ٤١٢٣